بسم الله الرحمن الرحيم

# مُقَدِّمَةُ المُؤَلِّف

ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيِّئ لنا من أمرنا رشداً، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

الحمد لله الذي ظهر لأوليائه بنعوت جلاله، وأنار قلوبهم بمشاهدة صفات كماله، وتعرّف إليهم بما أسداه إليهم من إنعامه وإفضاله، فعلموا أنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا شريك له في ذاته ولا صفاته ولا في أفعاله، بل هو كما وصف به نفسه وفوق ما يصفه به أحد من خلقه في إكثاره وإقلاله.

لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه على لسان من أكرمهم بإرساله، الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، ولا يحجب المخلوق عنه بستر سرباله. الحي القيوم، المنفرد بالبقاء، وكل مخلوق منته إلى زواله.

السميع الذي يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين في سؤاله.

البصير الذي يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء حيث كان من سهله أو جباله. وألطف من ذلك رؤيته لتقلب قلب

عبده، ومشاهدته لاختلاف أحواله. فإن أقبل إليه تلقاه. وإنما إقبال العبد إليه من إقباله. وإن أعرض عنه لم يكله إلى عدوه، ولم يدعه في إهماله، بل يكون أرحم به من الوالدة بولدها، الرفيقة به في حمله ورضاعه وفصاله، فإن تاب فهو أفرح بتوبته من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدوّية[1] المهلكة إذا وجده وقد تهيأ لموته وانقطاع أوصاله.

وإن أصر على الإعراض، ولم يتعرض لأسباب الرحمة، بل أصر على العصيان في إدباره وإقباله، وصالح عدو الله وقاطع سيده، فقد استحق الهلاك، ولا يهلك على الله إلا الشقي الهالك لعِظَم رحمته وسعة إفضاله.

وأشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له إلـٰهاً واحداً أحداً فرداً صمداً جلّ عن الأشباه والأمثال، وتقدس عن الأضداد والأنداد والشركاء والأشكال، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، ولا رادّ لحكمه ولا معقب لأمره: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله القائم له بحقه، وأمينه على وحيه وخيرته من خلقه، أرسله رحمة للعالمين، وإماماً للمتقين، وحسرة على الكافرين، وحجة على العالمين أجمعين، بعثه على حين فترة من الرسل، فهداهم به إلى أوضح الطرق وأقوم السبل. وافترض على العباد طاعته ومحبته، وتعظيمه وتوقيره والقيام بحقوقه، وسدّ إلى جنته جميع الطرق فلم يفتح لأحد إلا من طريقه، فشرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره ونهيه، وأقسم بحياته في كتابه المبين، وقرن اسمه باسمه، فلا يذكر إلا ذكر معه، كما في التشهد والخطب والتأذين.

---

(١) هي الصحراء.

فلم يزل ﷺ قائماً بأمر الله، لا يرده عنه رادّ، مشمراً في مرضاة الله، لا يصده عن ذلك صاد، إلى أن أشرقت الدنيا برسالته ضياء وابتهاجاً، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وسارت دعوته مسير الشمس في الأقطار، وبلغ دينه القيّم ما بلغ الليل والنهار.

ثم استأثر الله به، لينجز له ما وعده به في كتابه المبين، بعد أن بلَّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، وأقام الدين، وترك أمته على البيضاء الواضحة البينة للسالكين. وقال: ﴿ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

أما بعد: فإنَّ الله سبحانه وتعالى لم يخلق خلقه سدىً مهملاً، بل جعلهم مورداً للتكليف، ومحلاً للأمر والنهي، وألزمهم فهم ما أرشدهم إليه مجملاً ومفصلاً، وقسمهم إلى شقي وسعيد، وجعل لكل واحد من الفريقين منزلاً، وأعطاهم مواد العلم والعمل: من القلب والسمع والبصر والجوارح نعمة منه وتفضلاً.

فمن استعمل ذلك في طاعته، وسلك به طريق معرفته على ما أرشد إليه، ولم يبغ عنه عدولاً، فقد قام بشكر ما أوتيه من ذلك، وسلك به إلى مرضاة الله سبيلاً، ومن استعمله في إرادته وشهواته ولم يرع حق خالقه فيه؛ تحسر إذا سئل عن ذلك، ويحزن حزناً طويلاً. فإنه لا بد من الحساب على حق هذه الأعضاء لقوله سبحانه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود، الذي تصدر كلها عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله،

قال ﷺ: (ألا وإنَّ في الجسـد مُضْغَةً إذا صلَحتْ صَلَحَ الجسدُ كلّه)[1]، فهو ملكها، وهي المنفذة لما يأمرها به، القابلة لما يأتيها من هديته، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى يصدر عن قصده ونيته. وهو المسؤول عنها كلها، لأن كل راع مسـؤول عن رعيته: كان الاهتمام بتصحيحه وتسـديده أولى ما اعتمد عليه السالكون.

ولمَّا علم عدو الله إبليس أنَّ المدار على القلب والاعتماد عليه، أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزيَّـن له من الأحوال والأعمـال ما يصده به عن الطريق، وأمدّه من أسـباب الغَيّ بما يقطعه عن أسـباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق.

فلا نجاة من مصايده ومكايده إلا بدوام الاستعانة بالله، والتعرض لأسباب مرضاته. والتجاء القلب إليه في حركاته وسكناته، والتحقق بذلِّ العبودية الذي هو أولى ما تلبَّس به الإنسان، ليحصل له الدخول في ضمان ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجـر: ٤٢]. فهذه الإضافـة هي القاطعـة بين العبد وبيـن الشياطين، وحصولها سبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين، وإشعار القلب إخلاص العمل ودوام اليقين، فإذا أشرب القلب العبودية والإخلاص صـار عند الله سـبحانه وتعالى من المقربين، وشمله استثناء ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٤٠].

ولما منّ الله الكريم بلطفه بالاطلاع على ما أطلع عليه من أمراض القلـوب وأدوائهـا، وما يعرض لها من وسـاوس الشـياطين أعدائهـا، وما تثمرهـا تلك الوسـاوس من الأعمال. وما يكتسب القلب بعدها من الأحوال.

---

(١) متفق عليه (خ ٥٢، ٥٩٩).

فإن العمل السيئ مصدره عن فساد قصد القلب، ثم يعرض للقلب من فساد العمل قسوة، فيزداد مرضاً على مرضه حتى يموت، ويبقى لا حياة فيه ولا نور له.

وكل ذلك من انفعاله لوسوسة الشيطان، وركونه إلى عدوه الذي لا يفلح إلا من جاهره بالعصيان: أردتُ أن أقيد ذلك في هذا الكتاب، لأستذكر معترفاً فيه لله سبحانه بالفضل والنعمة؛ وينتفع به من نظر فيه داعياً لمؤلفه بالمغفرة والرحمة.

والله سبحانه تعالى يجعله خالصاً لوجهه الكريم، مؤمّناً من الكَرَّة الخاسرة، وينفع به مصنفه وكاتبه، والناظر فيه في الدنيا والآخرة، إنه سميع عليم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

* * *